

في حفل تأبينه بأبليه القاهرة: رؤوف عباس كان من أوائل المؤرخين الذين اهتموا بالحركة العمالية والتنظيمات الاجتماعية



صبرى صقر: لم يكن الدكتور رؤوف عباس أستاذاً فحسب لمادة التاريخ، لم يكن حتى مؤرخاً بالمفهوم التقليدي للكلمة، كان صاحب مدرسة تؤمن بدور الإنسان في حركة الزمن، وتعطي أهمية قصوى للتفاعلات الاجتماعية في صياغة هذه الحركة. كان مؤمناً بأن دروس الماضي ليست للذكرى، إنما هي للعتة والاعتبار، خطوة أولى نحو تقدم مصر وبناء مشروعها الحضاري في المستقبل، وفي مشواره الأكاديمي والعلمي كله لم يساوم أو يتنازل، ونجح عبر سنوات طوال في تكوين مدرسة من تلاميذه يحملون الأفكار ذاتها، وينتشرون في أقسام التاريخ بجامعة مصر الكبرى.

أصدقاء الراحل الكبير وتلاميذه أقاموا حفلاً لتأبينه في أتيليه القاهرة مساء الأربعاء الماضى، هنا بعض ما دار في اللقاء الذي أدارته الدكتورة نيللي حنا، وشارك فيه الدكتور السيد فليفل عميد معهد الدراسات الأفريقية والدكتور عاصم الدسوقي والدكتور سيد عشاوي أستاذ التاريخ الحديث بأداب القاهرة والباحث والمترجم بشير السباعي. تحدث الدكتور سيد عشاوي في البداية عن اهتمام رؤوف عباس بالحركة العمالية والعمال، مشيراً إلى أن مؤلفات «عباس» حول الحركة العمالية المصرية من أوائل الكتب التي اعتمد عليها الباحثون في أعمالهم. وكشف «عشاوي» أن «عباس» يمثل وعي جيل الستينيات بدراسة الحركة العمالية باعتبارها جزءاً من التغيير الثقافي، ووسيلة للتغيير السياسي في مصر في تلك الفترة، مشيراً إلى أن عباس اكتشف قدرة الحركة العمالية على التطوير والتنظيم وقدرة العمال على تحديث تحركاتهم وتطوير أغراضهم، حتى أصبحت الحركة العمالية جزءاً من الحركة الاجتماعية في الضغط على القيادة السياسية لإحداث التغيير السياسي. وأضاف أن «عباس» كان لديه رؤية ذاتية وموضوعية للحركة العمالية، وقدرة على معرفة وضع العمال وتحركاتهم من خلال مصادر خاصة، مشيراً إلى أن كتابه الأول «الحركة العمالية» الذي كان محور دراسته للماجستير لم يهد لأحد أفراد أسرته كما كان متبعاً، وإنما أهده إلى عمال مصر. وأضاف أن رؤوف عباس نشأ في أسرة عمالية واختلط عن قرب بعمال كفر الزيات فترك الموظفون الذين كان ينتمي إليهم والتحم بعمال كفر الزيات الذين أسقطوا اللجنة النقابية، لأنه عرف أن تحركاتهم وراءها خبرة فبدأ دراساته عن الحركة العمالية. وأكد عشاوي أن عباس ظل وثيق الصلة والاحتكاك بالعمال، إلى أن رحل عن عالمنا. ولم تنقطع صلته بالعمال بانتهاء دراسته للماجستير عن «الحركة العمالية». وأضاف أن «عباس» لم يكتف في دراساته بالحركة العمالية الحديثة، بل قدم دراسات وترجمة لوثائق بريطانية عن العمال في الثلاثينيات، وأشرف على العديد من الدراسات والرسائل داخل الجامعة وخارجها وفي كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. وانتبه رؤوف عباس إلى قيمة العلوم الأخرى فلم يغلق الحدود بين التاريخ وبقية العلوم، واعتمد في رسالته للماجستير على دراسات اجتماعية وقانونية. وأعطى قوة دفع لكل الكتابات التي اعتمدت عليه داخل مصر وخارجها.

وتحدث الدكتور عاصم الدسوقي عن رؤية رؤوف عباس للملكيات الزراعية في مصر.. مشيراً إلى أن عباس لم يكن رائداً في دراسة الحركة العمالية فقط وإنما في دراسة الملكيات الزراعية أيضاً. وأضاف أن مجال هذه الدراسات كان خارج أسوار الجامعة لأن الجامعة كانت «محافظة».. وعندما فكر عباس في الملكيات الزراعية كموضوع لرسالة الدكتوراه كان الموضوع من البداية مرفوض لأنه موضوع اجتماعي وليس تاريخياً. وأشار إلى أن عباس بدأ يعلم نفسه لأنه لم يكن في الجامعة منهج البحث في التاريخ، فدرس الاقتصاد السياسي والقانون والاجتماع لكي يكون لديه مفاهيم الطبقة الاجتماعية عندما يكتب عنها، كما اطلع على مؤلفات الأقطان الزراعية، رغم صعوبة ذلك لأن الأراضي الزراعية كانت مسجلة بأسماء نواحي وليس أشخاص، وكان من الصعب الحصول على حيازة أو ملكية لشخص. وأكد عاصم الدسوقي أن رؤوف عباس كان رائداً في دراساته الأكاديمية في الجامعة والحركات العمالية وله كذلك نضال في الحركات الاجتماعية مثل مشروع حزب الفلاح.. كما قدم مقارنة بين الملكية الزراعية في مصر والملكية الزراعية في اليابان واكتشف أن هناك قسماً مشتركة. وتحدث الباحث بشير السباعي عن رؤوف عباس والحركة الشيوعية في مصر.. مشيراً إلى أن الكتابة التاريخية في مصر أصبحت مشكلة كبيرة تتعلق بمنهج الكتابة وتداخل التاريخ مع الحياة الاجتماعية، مشيراً إلى أن عباس كان لديه رؤية خاصة لليسار المصري. وأضاف أن المصادر المتاحة لدراسة اليسار المصري وقتها كانت باللغة الفرنسية ولجأ إلى هذه المصادر لأن المصادر العربية كانت قليلة.

وتحدث الدكتور سيد فليفل عن كتاب الدكتور رؤوف عباس الأخير «مشيناها خطي»، مشيراً إلى أن الكتاب أثار ضجة وقت صدوره لأنه عبارة عن سيرة ذاتية لرؤوف عباس سجلها حكايات يروي بها تاريخ مصر المعاصر. وأضاف أن عباس مؤرخ اجتماعي مرموق وتحدث في كتابه بموضوعية يرصد كمواطن صامت لا ينتمي لأحزاب يوجه انتقادات للسلطة، ولكنه لا يخرج عن السلطة والنظام.. تحول عباس في كتابه إلى راو ينقل صورة الماضي كتجربة للجيل الجديد يبدأ في العهد الملكي مروراً بثورة يوليو وحتى احتلال العراق، وأضاف أن عباس سجل الحقيقة في أبسط الأشياء.. فلم يفسر التصرفات الخاطئة حتى لو كانت لأقرب الناس إليه.. وقدم حياة مصر الفقيرة والمعدمة، تحدث عن مرحلة التعليم بين شظف العيش والحاجة إلى الدعم.. وتحدث عن صراع الأساتذة في الجامعة وكيف تم تقسيم التاريخ في الجامعة إلى عصرين فقط الإسلامي والأوروبي، وعلي رأس كل قسم أستاذ متخصص في العصر المملوكي.. وكيف كان يتم دراسة مواد التاريخ القديم في السنة الأخيرة من الجامعة رغم أنه من المفترض أن تكون في السنة الأولى، لكنه تحدث عن أساتذته بكل احترام.